وليد اخلاصي
٢٠ سنتيمترًا من الملل

كان هوذا ما ارتاحت اليه عيناي : منزلق يصب في الشارع المزدحم ويختلط فيه ، يعكره ويرجه . انا ممدد على كرسي عند مصبه ، اراقب بمتعة والناس ينزلون فيه ولا يعودون ، يتدحرجون ويزحفون . البدين كان يثير زوبعة ، والمربوع والقصير كذلك ، والنساء النحيلات كن يثرن زوبعة ، وكنت لا اتحرك من مكاني. عيناي فيهما قحة مصباح كهربائي . اغلقت عيني بعد لحظة . كدت اغفو .

ماذا ارى ؟ انه حلم ، حلم قصير ، اني احلم :

شرطي انا ينظم السير ويلقي الاوامر ، ينتفخ كالديك . العيون الجميلة لا ترشوه ، ولا ابتسامة ـ غريب عن البلد . كل الناس في الحارة الضيقة المفتوحة الطرفين والتي تصب في الشارع ، كلها يجب ان تتوقف : فقد حان وقت التفتيش . هيا اخرجوا ما في جيوبكم ، ما في قلوبكم .

دام التفتيش على عرض الرصيف مدة ؛ لا شيء يستحق الاهتمام ، كل الناس شرفاء وفارغون تماما . المح رسالة زرقاء ، الحب ينز منها ببشاعة ؛ هي كاذبة يا صغيرتي . امزق الرسالة ، واطرد الفتاة من المنطقة .

صاحب المقهى الزجاجي طرد الحلم في تلك اللحظة ؛ جلستي لم تعجبه ، ابتسم في وجهي ثم ماتت الرقة في عينيه . عدت لتوّي الى الشارع الصغير الضيق ، المنزلق ابداً ؛ اصطدم فيضانه بتأملاتي ، انشر الشبكة والتقط الناس . افحص الشبكة ويهرب الناس .

الناس ! اين الناس ؟ كنت اعرفهم منذ آلاف السنين ، وكانوا يعرفونني ؛ كنا نذهب الى المعابد ونغني معا ونخترع الاساطير الطويلة والقصيرة ، ونسن قوانين مفيدة احيانا . لقد نسي الاصحاب كل شيء ، الا انا فما زلت اذكر ؛ من يذكر ؟ سيداتي سادتي من يذكر ؟ هل اصبحت الاشياء قديمة لتنسى !

الجديد ! ما الجديد ؟ ابتسامة الانوار المعلقة ؟ جري القطران الحديدية على الاسفلت الكئيب ؟ لا جديد . اقسم باللحظة التي شيعناها منذ قليل الا جديد . عدت شرطي

وعاقبت رجلا بطيئا توقف امامي ليمنع رؤيتي للاشياء من الامتداد . هيا ابتعد ايها العجوز؛ هو لا يبعد ، لكزته بكلمة على لساني لم تسمع ، مشى بعد قليل ، اشفقت عليه ، ناديته باسمه الذي لم اعرفه ، ولكنه غاب في الزحمة، كان يذوب وكانت الزحمة تنمو وتتسرطن.

يجب ان ابقى شرطيا لانعم بالسلطة . لم انعم بالسلطة مرة واحدة : كنت تلميذا يضربني المعلم ، ولم اكن ابنا بارا فغضب والدي عليّ واشفقت امي على المنبوذ فخبأتني في ثيابها وخرجت آنذاك من الساحة . لم انعم بالسلطة حتى وانا ارمي بورقتي في صندوق الانتخاب ؛ كانت بيضاء وانا احرم من متعة اختيار الافضل . من الافضل ؟ انا ؟

انا ! واسمي الكامل على سبيل الذكرى مكون من مقطعين وله ذيل مطرز بتجويف كبير كوعاء تطبخ فيه الرغبة ولا تنضج . كنا في الماضي نأكل الاشياء بدون ان تنضج .

كل ما في جعبتي الآن رغبة في ادانة البشر ، تجريمهم ومن ثم اصدار العفو عنهم . انا احبهم حبا جما واريد لهم السعادة . صدقني ايها الرجل المنتعل وجهك ، فانا لا اكرهك ابدا ، وسأدعك تمر بسلام من امامي ولن اكتب ضبطا بحقك . انا احب البشر منذ آدم وحواء مرورا بنوح ، وحتى هذه الايام التي يضاجعون فيها عقولهم ولا ينجبون سوى الملل . يتزوجون ويتسرون ويتحولون الى انابيب ويحبلون ، ويأتي الملل الى الحياة كامل الخلقة ويسجل في الدوائر الرسمية ، ويبكي في الليل ويجوع ويأكل الذي خلقه ولا يشبع .

مر حوض امرأة من امام عينيّ النافذتين حتى العظم ؛ مليئا بالسمك كان الحوض . حاولت بالشبكة واصطدت واحدة ؛ كانت ميتة ، رميتها في الحوض من جديد . وحاولت ثانية فلم انجح ؛ كنت ارمي بالشبكة وافشل . كانت المرأة لا تبتسم ، اما التي ظهرت من الباب في المنزلق فقد سبقتها نظراتها الحادة ، ولم تكن تبتسم ايضا ، ولم يكن الرجل الذي يقربها يفعل ، ولم ابتسم انا . الشارع لا يبتسم ، الشارع يصرخ ، انا استمع الى الشارع والى المرأة والرجل اللذين كانا ينزلان ببطء . كنقطتين على لوح اسود كانا ينزلان ، تمثلان صراخ الساكن ، تسكران ولا تتمايلان .

سقطت النشوة من اعلى ، والفرحة سقطة . عيناي تسقطان على الاثنين وتقدمان لي تقريرا كاملا وعاجلا :

تشير الدلائل الى ان الكائنين هما رجل وامرأة ، بداخلهما امرأة ورجل ، ولدا في بيئتين ويفصلهما وادٍ سحيق، بينهما مسافة ويسمع من خلالها صراخ. انهما يسيران ببطء،

يدا الرجل في جيوبه والمرأة متشابكة الذراعين ، يحبان الالوان المتنافرة ويلتهم كل منهما كمية من القرف ولا يشبع. هما يتوقفان بعيدا ، ما زالا بعيدين، يحييان رجلا عظيم الهامة، يقبل يد المرأة فتشرق في نهديها رغبة . لم يحدث شيء بعد ذلك ، تابعا الطريق .

ارسلت جواسيسي من جديد . الزوجان يتهاديان كبطتين نائمتين ؛ احسست برغبة في الصيد ، ان اقتنص الزوجين كانت رغبتي . لم لا احبهما ؟

– وهل احببت احدا ؟

– بل احب الناس جميعا .

– انت لا تحب هذين الزوجين ، الم تقل ذلك ؟

– انني اعتذر .

– ...

– انني اعتذر .

– لقد قبلت اعتذارك .

يا زوج الحمام الوديع ، احبكما ، وقد وقعت في هواكما منذ ولدتما في شارعي وترعرع وجودكما ونما . كنت انمو ايضا ، المدينة تنمو ولا اعود انا شيئا .

يا زوج الحمام الوديع، ادعوكما لقضاء حفلة تعارف صغيرة ، لنقدم انفسنا نحن الثلاثة بعضنا لبعض .

« اتريدان شيئا من الموسيقى ؟ وانت يا سيدتي ، ما رأيك بكتاب عن السعادة ؟ ا انا فاريد شرابا مثلك يا سيدي يُنسي الم الهزيمة » .

انفض الجمع قبل ان ينعقد ، ولم تقبل الاسرة الصغيرة دعوتي . جعلت اراقبهما جديد . الرجل يحبل بالصمت والمرأة كانت تراقب خطواتها بحذر .

– آمرك يا سيدتي ان تتعلقي بذراع صاحبك .

– انني متعلقة به واحبه .

– والمسافة التي تفصل بينكما ؟

اريد ان اعود الى بيتي ، لقد مللت .

– ارجوك يا سيدي ان تحنو عليها .

– طلبك مقبول .

اريد ان اعود الى بيتي ؛ لقد مللت حقا ، وتصدأ الوعاء الذي نطبخ الرغبة فيـه ولا تنضج . انني حزين فقد فشلت في مهمتي ، لم استطع مع الشارع شيئا ؛ هو ما زال في صراخه ، والمسافات بين الناس واسعة . سقطت البارحة حجرة مسطحة ولامعة على رأس رجل كان يجلس مكاني على رصيف المقهى ، لم اصب انا بسوء ونقلوه هو الى الارض البكر بدون تحية. لم يغضب الشارع ولم يحزن ، لم احزن انا ؛ تبا لي ، كنت اعرفه ولم ابكِ. سأعود الى غرفتي فقد سئمت .

ايها السادة ، لقد انتهت دوريتي ، ساقوم حتما . لكن المرأة التي بداخلها رجل صرخت فجأة ، وكذلك فعل الرجل الذي بداخله امرأة . ولمعت امامي في المنزلق مديتان ، استلت المرأة واحدة من زنارها واخرج الرجل الاخرى من جيبه الخلفي .

عاريان ، آدم وحواء في شارع مزدحم ، يصرخان ، وكوميض البرق الخاطف جرحت المديتان هلام الصراخ واغمدتا في الجسدين . تلقى الرجل الطعنة في ظهره فلم ييأس ، طعن زوجته بين ثدييها فانفجر الصديد . تكررت بعد ذلك الطعنات ، كانت تتكرر كلمح البصر ، في ميكانيكية مكوك ، وصراخ الكائنين يوقع لحن المجزرة .

خذ ، خذ ، وانت خذي ، خذي . الدماء كانت تطفح ، لزجة مصفرة تطلي وجودهما. كنت ابتلع ريقي وكان الناس لا يأبهون ابدا . جماعة بقربي كانت تضحك ، والطعنات ما زالت ترقص بجنون . اريد ان اصرخ .

بعد لحظات ، الرجل كان يحتفظ بالمرأة بداخله ، والمرأة احتفظت بالرجل الآخر ايضا. لم يحدث بعد ذلك شيء ، مر الزوجان من امامي وظل ابتسامة تخيم على نصفي وجهيهما الاسفلين ، والعيون مـا زالت جامدة تطفح بالفراغ . يا لله ، لم يتحرك احد للجريمة . الشارع يصرخ ، ما زال يصرخ والقتيلان مرا من امامي ، ثم اختفيا في الزحمة .

يجب ان اتمالك انفاسي ، انها تخنقني. لم انجح حتى في منع الجريمة التي لم يلحظها احد.